بفضل الإسلام أصبحت اللغة العربية لغة عالمية

للأستاذ محمد أبو الفرج العش

محافظ المتحف الوطني بدمشق
استاذ محاضر في كلية الشريعة
جامعة دمشق

1 ــ التلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية :

آ ــ اللغة العربية موجودة قبل الاسلام تتكلمها القبائل العربية في الجزيرة العربية وفي أطراف العراق والشام . لو لم يظهر الاسلام بين العرب ، فماذا كان يقدر لهذه اللغة ان تكون ؟ :

1) تظل اللغة العربية متعددة اللهجات بتعدد القبائل ، وهذا ما ينقص من شأنها كلغة .

2) تظل اللغة العربية لغة محلية تؤدي ما يناسب البيئة والحاجات المحلية .

3) تظل قاصرة في التعبير اي ان الاسلوب الادبي يبقى جافا : الجمل متقطعة منفصلة لا ترابط في الافكار، الخيال والتصور فيها ضعيف ، الكلام جزل، والمفردات غير منتقاة : اعني **لو ظل العرب منكمشين في جزيرتهم لظلت اللغة العربية تخضع الى عوامل التفتت والتقهقر،** واذا احسنا الظن نتوقع لها الجمود .

4) لو لم يأت الاسلام ، وقدر للعرب أن يكونوا دولة او ما شابه ذلك، وان يخرجوا غازين من جزيرتهم، فهل كان يقدر لهم أن يرسخوا اقدامهم في الاراضي التي يحتلونها ، اذا لم يكن لديهم رسالة روحية ذات مثل عليا ، تجمع ما بينهم من جهة ، وتقنع اهالي البلاد المفتوحة بالاذعان لهم . اعني أن العرب لو انساحوا في الارض بدون رسالة لكانت حركتهم اندفاعا مؤقتا ينشد الغنيمة ، لا يلبث ان ينكسر وان يتمزق الشمل ، ولما كتب للغة العربية الانتشار .

ب ــ ما هو اثر الاسلام في اللغة العربية .

1) توحيد اللهجات وبخاصة عندما انتشرت ، ولقد انتشرت موحدة بلغة القرآن الكريم .

2) الثروة العظيمة من المفردات الجديدة التي استعيرت من اللغات الاخرى ، والتي اشتقت من أصل اللغة لتساير الحركة الكبيرة ، والتي نحتت وصقلت وربما ابتكرت لتعبر عن المجال الحيوي الجديد .

3) القرآن الكريم مصدر ثابت راسخ ، يرجع اليه للتأكد من سلامة اللفظ وبناء الجمل وفصاحة المعنى وضبط النحو والصرف ..

4) صقل الاسلوب ، حسن الاداء ، التعبير عن الخيال والمشاعر .. كل ذلك حصل للغة العربية بسبب انتشارها بفضل الاسلام بين الاقوام الاخرى التي تأثرت منها واثرت فيها .

5) استنباط قواعد اللغة والاملاء والنحو والصرف.. ضبط بحور الشعر ، ملاحظة الفروق في المعاني (فقه اللغة) .. الخ هذه الابحاث اللغوية تمت على ايدي العرب والعلماء الاعاجم . وكان الاعاجم بحاجة اليها ، فعنوا بها ، وحسنوها ، وطوروها .

6) تقدم فن الكتابة وتنوع الخطوط وانتشارها .

7) كثرة عدد المتكلمين والكاتبين باللغة العربية من الاعاجم ، فهم لو لم يدينوا بالاسلام لما احبوا لغة القرآن فتكلموا بها وكتبوا بها وافتخروا بها . لا ننسى ما قاله البيروني : **« انه لاحب الي ان اهجى بالعربية من ان امدح بالفارسية »** .

8) **أصبحت اللغة العربية بفضل الاسلام لغة عالمية ، كتبت بها العلوم والفنون** واضحت قادرة على التعبير فى جميع المجالات .

9 — لو لم يدعم الاسلام اللغة العربية لما بقيت الا فى مجالات ضيقة وفى حالة تقهقر .

10) لو لم تنتشر اللغة العربية انتشارا واسعا بفضل الاسلام لما اهتم الآن العلماء المحدثون هذا الاهتمام باللغة العربيةوآدابها وقواعدها .

*

2 — لنجيب عن مدى ارتباط وتلازم انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية . نسأل انفسنا : « ماذا حل باللغة العربية عندما ضعف الاسلام فى النفوس؟ »

1) عندما ضعف الاسلام فى نفوس الحكام اساءوا الاستعمال، فنشبت عليهم الثورات ثم حدثت الانفصالات عن جسم الدولة الواحدة ، فتفتتت القوى وطمع الطامعون من خارج المملكة نعدد منهم : الزط ، الزنج المجوس (ومن ورائهم الحركات المنحرفة) الصليبيون، الموغول ، البعثات التبشيرية ، الاستعمار، الصهيونية

كلما قوي الاسلام فى النفوس تعود بعض اجزاء البلاد العربية والاسلامية الى الاتحاد او الوحدة فتدفع الخطر مثال ذلك : جهود الزنكيين فى توحيد القوى ضد الصليبيين ثم جهود الايوبيين ثم المماليك .. وعندما يعود الضعف للاسلام فى القلوب تنفرط القوى ويقوى امل الطامعين فى التغلب . وانا نجد من خلال ذلك **نهوض اللغة العربية بنهوض المسلمين وتضاؤلها بتخاذلهم .** لو انا تتبعنا فى التاريخ وتاريخ الادب مراحل ازدهار اللغة العربية والادب العربي ، لرأيناها فى اغلب الاحيان تطابق مراحل **عز الاسلام ووحدة العرب والمسلمين** تحت لواء الاسلام .

لا يخلو الامر طبعا من شواذ ، لكن النتائج العامة لا تؤخذ من الشواذ .

2) فى عصر الجمود والانحطاط منذ القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية ماذا حل باللغة العربية فى بلاد العرب وفى البلاد الاسلامية ؟

— المستعمر فى البلاد العربية وبخاصة فى شمالي افريقية حاول فى مدى سنين طويلة ان يقضي على اللغة العربية ويحل محلها لغته الاجنبية ، وحاول ان يضع من قيمة اللغة العربية ويصمها بانها غير خليقة بمسايرة الحضارة وتطور العلوم .. الخ .

لم ينجح الاستعمار بمحاولته فى الاوساط الاسلامية ، ونجح بعض النجاح فى الاوساط غير المتدينة . لماذا ؟ — لان الاسلام حفظ لغة القرآن، ولان **القلوب المؤمنة لا يمكن أن تقتنع بان لغة القرآن السماوية لغة غير جديرة .**

— المستعمر فى البلاد الاسلامية سواء اكان محتلا لها أم صاحب نفوذ فيها حاول أن يقضي علىاللغة العربية كلغة فكر ودين . نجح المستعمر الى حد بعيد فى مخططه ، لكن اثره كان ضعيفا فى كل بؤرة اسلامية حق . فما زال اثر المستعمر من مكان ، الا وارتد احترام اللغة العربية الى النفوس بفضل رسوخ الاسلام .

— نحن الآن امام تجربة جديدة فى يقظتنا الحاضرة وربما فى نهضتنا المستقبلة كعرب وكمسلمين . فبالقدر الذي نعود فيه الى انفسنا ونعود الى الحق ، نجد انفسنا اقرب الى الاتحاد والوحدة ، وبالقدر الذي نكسبه فى هذا المضمار نصبح اعزة اقوياء ، وبقدر ما نكون اعزة ، فاننا نرفع من قيمة لغتنا فى الداخل والخارج ، ونصبح موضع اهتمام وتقدير الجميع .

اجوبة عن الاسئلة الايضاحية :

1 — لولا الاسلام لما تاتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم .

— ضمنت الجواب على هذه النقطة فيما سبق ..

2 — لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

— يصح هذا القول اذا اتممنا الكلام فقلنا « لما انتشر الاسلام **فى البلاد العربية** » لان العرب يعشقون لغتهم . وانا لنذكر بعض الاخبار فى بدء الحركةالاسلامية التي تقول ان المشركين الذين جاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يسترقون السمع فيطربون لتلاوة القرآن ، فبعضهم كان يلين قلوبهم بسرعة فيسلموا ، وبعضهم تطغى عليهم مصالحهم واحقادهم فيصدوا انفسهم عن الاستجابة .

اما تعميم هذه الفكرة على الشكل المذكور اعلاه، فانه أمر قد يدرك ويعتقد به قلبيا لدى المسلمين المؤمنين بعد فهم القرآن والاسلام عن طريق الاحتكاك وحسن المعاملة وتقليد القدوة المتمسكة بالمثل العليا الاسلامية . ولكن لا يمكن التدليل عليه واقعيا . كيف يمكن أن نقنع بذلك الاقوام غير العربية ؟

ان المسيحيين العرب والمستعربين من سكان بلاد الشام مثلا عربوا كتبهم المقدسة ومارسوا

طقوسهم بها (بعضهم احتفظ لبعض الطقوس بصلوات تتلى باللغة القديمة) ظلوا على دينهم حتى الآن ، فلو كانت اللغة العربية كلغة للقرآن هي السبب فى انتشار الاسلام ، لما بقي المسيحيون على دينهم ، ولاعتنقوا الاسلام .

كيف يمكن ان يكون ذلك صحيحا بالنسبة للفرس الذين هم فى الاصل لا يقيمون وزنا للعرب ، وماذا كان يدريهم بأهمية اللغة العربية حتى يقبلوا الاسلام بسببها .

3 — يقوى الوعي والوازع الديني او يضعف تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف .

— الصحيح ان اللغة تقوى بقوة القوم الذي يتكلم بها . ويقوى القوم بقوة المبادىء الروحية والخلقية والاجتماعية التي يتمسك بها . فاذا كان الاسلام هو السبب فى عزة القوم ، فان اللغة تكون تبعا لقوةالاسلام وليس العكس صحيحا .

4 — مدى تاثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن فى اللهجات او اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية او لدى الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية او الآسيوية .

1) الفكر الاسلامي الصحيح يحتم على المسلمين ان يدرسوا القرآن دراسة عميقة لا يتيسر ذلك الا بدراسة اللغة العربية ، ومتى تعمق المسلم بدراسة اللغة العربية الجميلة يحبها ، فيستعير مفرداتها ويتاثر بطريقة ادائها واسلوبها .. كل ذلك يرتد اثره فى اللهجات المحلية او اللغة الاقليمية لدى المسلمين فى اي مكان .

2) ربما لا يقف الامر عند هذه الحدود ، قد يتباهى المسلمون بالتحدث باللغة العربية وبالكتابة باللغة العربية — كما حدث ذلك قديما — أما حديثا فاني قد علمت ان احياء اسلامية فى بخارى حاليا ما زالت حتى الآن تتحدث بالعربية كلغة البيت والام . سمعت هذا الخبر اخيرا من المستعرب السوفييتي الاستاذ غريغوري شارباتوف فى محاضرة القاها فى جامعة دمشق فى 19 — 3 — 1968 .

5 — تاثير لهجتنا الاقليمية فى تعابيرنا العربية المحلية فى بلاد الشام . نسبتها ومداها .

1) اللهجة الاقليمية هي العربية العامية الدارجة، يخالطها امور كثيرة تنحرف عن العربية الفصحىنلخصها فى الامثلة التالية :

دمج عدة كلمات ونحت كلمة واحدة : شلونك — شو لونك — شي هو لونك — معناها كيف حالك .

ابدال حرف بحرف : تلفظ القاف كالهمزة ..
تغيير ترتيب الحروف : زوج تلفظ جوز

اهمال ضبط اواخر الكلمات ، والخطأ فى ضبط بعضها الآخر (مثلا واو الجمع والف التثنية ليس لهما مكان فى العامية) .

استعارة مفردات اجنبية : تركية ، فارسية ، افرنسية ، ايطالية ، انكليزية .. ولا تلفظ هذه المفردات صحيحا كالاصل .

وغير ذلك كثير .

2) ليس للهجة الاقليمية تاثير على اللغة العربية، بل العكس هو الصحيح كلما اقبل الناس على التعلم وتقوية اللغة العربية الفصحى كلما زالت من لهجتهم المحلية الادران والشوائب التي علقت بها . وانني لاعتقد ان الاقبال على تعلم اللغة العربية الصحيحةاذا ظل مستمرا بحماس وشغف فى جميع البلاد العربية ، فان الفروق فى اللهجات الاقليمية ستتضاءل وتتضاءل حتى تختفي . والدليل على ذلك ان المتعلمين فى اقصى المشرق وفى اقصى المغرب يتفاهمون حتى ولو تكلموا اللهجة الاقليمية المصقولة بالتعلم ، بينما لا يمكن أن يتفاهم رجل من العامة فى المشرق مع أخيه من المستوى نفسه فى المغرب .

3) نسبة العامية فى اللغة العربية فى بلاد الشام تكاد تكون ضئيلة اذا ما قورنت بالعامية الموجودة في الاقطار العربية الاخرى . ويمكن هنا أن نلفت الانتباه الى أن نسبة العامية فى المدن الكبيرة فى بلاد الشام نفسها اعلى منها فى منطقة البادية وحوران والفرات . وتكاد تكون لهجات بعض القبائل البدوية قريبة من العربية السليمة .

6 — المكانة التي تحتلها العربية فى بلدنا بالنسبة للغات الاجنبية .

اللغة العربية فى بلاد الشام هي اللغة الرسمية ولغة العلم والكتابة والبيت والطريق ، ولا تستعمل اللغة الاجنبية الا لدراسة المراجع العلمية الاصيلة وللتفاهم مع الاجنبي . قد يشذ قليل من الاسر التي تلقت ثقافة اجنبية اكثر من الثقافة العربية ، فتتحدث فى البيت والمجتمع بلغة خليطة ، لكن هذا ممجوج ومستقبح .